البحث عن مساحة

بقلم
تيسير نظمي

وسعت سريره الارض والصدور :

وقف بعيني لص متوثبتين يتأمل جدران الغرفة . لم يمض على نقله لسريره الحديدي . وحقيبته المبقورة سوى يومين . قال لهم بلهجة الحسم : سأسكن عندكم . لم تضق صدور الرفاق بفكرته بعد طول ما عاناه من ازمة السكن . جاءهم في اليوم التالي يحمل قطعا من الحديد الصدىء ، وبعض الكتب والمجلات ، وماكنة حلاقة وثلاث بطانيات مهترئة ومخدة قد قفزت احشاؤها للخارج ، وبعض ازواج من الاحذية التي تروي تاريخ وتطور حياته منذ كان صغيرا . حطّ « شعنون » رحاله في ساحة « الحوش » .

ساله سامح : « ما هذا يا شعنون ؟ » . قال : « هذا سرير » . رد سامح : « هذا حديد سكراب .. يا سمكري » . قال شعنون السمكري : « سنوصل المكسور ونطعج المطعوج فينعدل » . بعد طعج فربط وفك فتوصيل فربط ، نهض في فناء الدار هيكل لسرير بأربع قوائم . هلل الرفاق فرحين ثم اخذ شعنون « يداحش » حتى اتخذ سريره موقعا بين ستة اسرّة ملتحمة في علاقات رصف رفاقية ضمن حجرة بأربعة جدران فقط وسقف مهلهل بوده لو هوى فاراح واستراح .

منذ تلك اللحظة عاد السرير الى التنظيم . احسّ شعنون بوجوده . بل بدأ يخامره فرح طفولي لتواجده بينهم ، لولا ان جاءته تلك الفكرة العفريتية في الليلة الثانية .

هبوط الوحي :

هبط الوحي في ساعة متاخرة من الليلة الثانية عندما كان يتأمل جدران الغرفة . تذكر رصيده من الصور العريانة والصور غير العريانة . كل رفيق في الغرفة يحتفظ بمجموعة صور ملصقة على الجدران .

« لماذا لا يلصق صوره » ؟

.. هذا الحائط يزدحم بمظاهرة صاخبة . ضجة ألوان افخاذ تتموج ركبت فوق بعضها البعض طباقا . في أعلاه رتل من الصور المتكررة لمنظر واحد : (سيقان امرأة) . تنحدر عيناه قليلا فتقع وقعة ساخنة على صفوف صواريخ موجهة : (نهود نساء) . تدور الارض دورتها في اقل من ثانية عند انحدار عينيه في وقعة ملتهبة على امرأة في أوضاعها المختلفة . تارة مدفوعة المؤخرة الى وراء . واخرى رافعة فخذا . وثالثة « مسدوحة » . ورابعة ترسم شارة النصر دون استعمال أصابع يديها .

« اللعنة عليك يا شعنون » قال محاورا نفسه .. « كل شيء تقابله تحاوره بلغة الحرب . تلك الدبابة ما أروع أن تزرع فيها قنبلة . انها مصفحة بصدر يتحدى . بودك مصادمته . جربت مختلف أنواع الاسلحة . لم تجرب في حياتك طعم امرأة واحدة . هذا الصخب يملأ الجدار . لن تستطيع توزيع سلاحك هنا » .

في وسط الغرفة . يتأمل جدارا آخر . يحمل صورة بين يديه . يعيد حقيبته الى مضجعها تحت السرير .

اجساد نساء قصت رؤوسها لتعرض افخاذا : بضّة ، ممتلئة ، قصيرة . طويلة . مكتنزة . نحيلة . شقراء . حنطية . بيضاء وزنجية . كأنما تمثل سفارات جميع نساء العالم في الغرفة . لا رؤوس تبدو . اجساد بلا وجوه . هذه « عمايل » سامح « انه لا يجيد قصّ الصور » اقنع نفسه . « ولا ذوق له في نوع معين من النساء » . اقترب من الحائط وخلع بعض صور سامح . « ليس كلها . نصفها على الاقل .. ولتكن اولى ممارسات الاشتراكية الصورية » .

شعنون يزجّ الصور . الصق الصور . خربط الدنيا وشقلب نواميس الكون . نساء لهن وجود مثلما لهن سيقان . صور ناطقة بالود والحنان والحب والاثارة .

استلقى على سريره يغمره شعـــور بالثقة بنفسه بعـد الانجاز . تقابله الصور اذا نام واذا استيقظ واذا حلم . سامح « دفش » الباب ودخـــل . شاهد صوره مبعثرة مشردة في انحاء الغرفة . حدق بعيني ساخط متذمر :

ـ يخرب بيت أبوك يا شعنون .
ـ مالك ؟
ـ شو اللي عملته ؟
ـ الصقت بعض صوري .
سامح يتعرف على الاجساد .
ـ كيف تستبـــدل بالاجنبيات (سهيـر ونجوى وجورجينا) ؟

احسّ شعنون بأن ما اقدم عليه لم يكن بسيطا الى الدرجة التي تصورها . شعر بعقـــدة الذنب لمساسه بالعروبة ، كما ادرك انه بعمله هذا قد تنكر لاهدافه القومية والتاريخية . لكنه ما استسلم . قال بشجاعة ظاهرهـا القوة وباطنها الخواء : « انظر الى صورك كلها سيقـــان ونهود وارداف نساء . اين الوجوه ؟ كيف تطلب مني ان اعرف جورجينا من نجوى من بلوطة ؟ » . سامح التقط جواريه عن الارض . شعنون انتظر الاجابة وظـل ينتظر حتى انكسر خاطره .

النكســة :

رتب سامح صوره من جديد ثم خلع صور شعنون فاخذت الرؤوس تتهاوى واحدا بعد الآخر . تأمل شعنون صوره وقد قطعت عن الجدار قبل اوانهـا . احسّ ان هذا الحادث برغم صغره ينتقص مـن وجوده . الارض وسعت سريره . والسرير وسعه . والارض وسعتهما ، ووسعت المبقورة. غير ان صوره ما وسعتها الجدران ولا الصدور . انهزم شعنون فالتقط صـوره واعادها الـى المبقورة واعاد الاخيرة الى مضجعها .

شعنون يبدع ويكتشف ويفكر :

في اليوم التالي اشرقت الشمس . انتبـه لوجود حيز يتسع لبعض صوره . وبالرغم من شعوره السـابق بالهزيمة الساحقة الا ان فرحة انتصار بسيط غطت على هزائم ثلاثين سنة من عمره . لاحظ بحسّ انسان مرهف ان دفتي النافذة غير محتلتين . عجب فـي بادىء الامر عما اذا كان ذلك يشير الى وجود كتيبة من العسكر حالت دون تقدم المظاهرات اليهما . كانتا خاليتين مـن الصور تماما . أيقن ان حيزا كهذا لا بد من استغلاله . نهض على الفور وجرجر حقيبته مؤذنا بتقدم قواته الباسلة تحت امرة بريجيت باردو . اعتبر كـل الهزائـم السابقـة ارهاصات لكشف كهذا . وتراكمات لابداع كهذا جعـله يكتشف اراضي غير محتلة وجعل من « شعنون » اسمـا سيقترن بالمستقبل باسم « كريستوفر كولمبس » و « طارق ابن زياد » و « صلاح الدين » و « نابليون بن برت » .

سيقول تاريخ هذه الغرفة : « كان الفضل للمناضل شعنون بن سمكري في .... » ثم ينهالون بالاحـداث والكشوفات والاختراعات والافكار والفتوحات المسجلة في محاضر الجلسات .

ما أدراك ما فكر وما أدراك ما أبدع . الا بأي صوره يكذب الحسّ الانساني ويخيب الذوق وتكـذب الغريزة البشرية التواقة . تلك الصور برغم كونها خازوق البشرية العظيم وقانون الحياة الكريمة . انما هي دلالة عـــلى تواصل الوجود علـى الارض واتصال ما بعده اتصـــال ـ اذا ما قورن باتصاله بالاحزاب والتنظيمات ـ لا ينقطع ولا ينضب . انه يذكر كيف قطع عليه الرفاق الاتصـــال بالتنظيم وغير التنظيم . وكرجل شرقي كان في كل مرة يأخذ زمام المبادرة ويتصل . ذات مرة قال له أحدهم انه يتصل بامرأة . سأله شعنون يومذاك عن اسمها الحركي واسمها اللاحركي فقال انها ليست في التنظيم .

ففر شعنون فاه قائلا : « اذن كيف تتصل بها ؟ » .

قال الآخر : « غبي » . سأله شعنون وهو يتصبب عرقا خوفا من انفـــلاش التنظيم : « من ؟ » . قال : « انت » . قال شعنون متسائلا : « أنا ؟ » . قال الآخر : « نعم » . وتفجر ابداعه المبكر . فنقيض السياسة ـ في عرفه ـ الجنس . « آه يا شعين كم ضحكت على نفسك عندما فهمت بعد أيام ان أتصاله بها كان عضويا . قلت : « خذني لأتصل » . قال : « هي لا تتصل » . قلت لـه ان لديك استعدادات مخزونة وطاقات تـذهب هدرا . قـــال لك : « هكذا حال الامـــة » . حاورت نفسك . « أصحيح ان طاقات الامة كطاقاتك وحالها كحـالك ! » فقيل لك ممن سبقوك في الوعي السياسي والاقتصـادي « نعم » . حاورت نفسك . « أصحيح ان الحال كحـال شعنون ؟ » . ثم نهيت نفسك عن الاغراق بالذاتية وقلت : « فكر يا شعنون بحال الامة ودعك من التفاهات » . لكن فكرة الاتصال ظلت تراودك وتثبت كل يوم في دمك وهذه طامة كبرى وانحرافات .. لقد بليت بها وانزرعت فـــي راسك . اذ كيف تهدر طاقاتك دون أن تستفيـد منها الامة ؟ اليس هذا خروجا عن أبسط مبادىء الالتزام ؟!

قلت لهم انك تفهم المبادىء التقدمية في شتى ميادين التخلف ، لذا فعلى الرفاق الذين يتصلون وترتفع مراكزهم (حسب طاقاتهم الموجهة في الاتجاه الصحيح) الى فوق (في حين انك ما تزال منـــذ خمس سنوات في مكانك قف) . قلت لهم ان عليهم مهمة تدبير اتصال عاجل . قيل لك : « هات خمسة دنانير » . قلت : « من اين ؟ » قيل لك : « من أين تتصـــل اذن ؟ » . فطرقت بقبضتك على الطاولة قائلا : « خذوني » . قالوا : « الى جهنم » .

كررت : « خذوني والا رفعت تقريرا لفوف بان التنظيم اصبح شبكة مواصلات » . ضحكوا قائلين : « تقريرك معناه تجميدك مرات اخر » . دبّ الخوف في جميع اعضائك . تجمد لسانك خوفا من أن تصبح كالدجاج المثلج . اصبحت في وضع ارنب . وضع الارانب خير من أن توضع في ثلاجة . « معلهش يا شعنون » . ايقنت الآن بعد انقضاء نصف ما تحلم به من العمر ، انك في « باب الاتصال » تصنف في رتبة الارانب .

الاخلاق العامة تحتل المساحة :

في المساء اجتمع ستة رجال سابعهم .... لتدارس النتائج الخطيرة الناجمة عن تصرفات شعنون . فعندما كان يلصق صورة بريجيت باردو كانت بنت الجيران على الشرفة ولاحظت حركة غير عادية في دفتي نافذة سكن « العزاب » فكان أن اشتكت لاهلها ، وجاء وفد من سكن « العائلات » للتباحث . وعند استدعاء المتهم فوجيء بالامر . قال انه كان منهمكا في لصق الصورة ولم يخطر بباله مطلقا ان الصبية تستذكر دروسها على الشرفة . تدارك الفريقان الموقف قبل أن يصل خبر استدراج الفتاة عن طريق لصق صورة الى صاحب الملك . وكان يرجع الفضل في ذلك الى مشاعر الفريقين بأنهما ابناء بلد واحد والى الجهود التي قام بها سامح في سبيل اقناع وفد « سكن العائلات » بأن شعنون ضيف مؤقت عليهم ريثما تحل أزمة السكن وبأن الولد على نياته ولا ترمز حركاته وتصرفاته الا الى طفولته و « هبله » . ولم يكتف سامح بذلك بل همس في أذن ولي أمر الفتاة ـ الذي لم يبق له من الدنيا ما يحافظ عليه سوى شرفه ـ بأن الولد « شعنون » ... مهزوز الشخصية ومخصي . غير ان والد الفتاة لم تقنعه كل هذه الاضواء على شخصية مرتكب الجريمة ، واشترط اغلاق النافذة تماما وطرد الضيف بأسرع وقت وفي أقرب فرصة .

جلس شعنون منكمشا على نفسه . دارت المناقشات ودار راسه . اذ كيف انتقل بين عشية وضحاها من مرتبة ارنب الى مرتبة اهبل ثم قضي عليه تماما عندما اكتشف انه في « باب الذكور » مخصي . ما معنى هذا وهم الذين قالوا له ان حال الامة كحاله ؟..

في الختام رأت الاغلبية ان شعنون بريء من التهمة وانه منذ الامس يحاول أن يجد مساحة يلصق فيها صوره وانه من المستبعد أن يكون قد حاول البحث عن مساحة له في قلب الصبية . ثم أشار احدهم الى خطورة الحادثة عندما يستغلها صاحب الملك في المحكمة كورقة رابحة لالغاء العقد ـ الذي لم يمض عليه خمس سنوات ـ وبذلك تتاح له فرصة طردهم من السكن او يجعلهم يوقعون عقدا جديدا يرضخون فيه للزيادة . استغرب الجميع كيف نسي شعنون هذه النقطة التي بسببها طرد من السكن واصبح بلا مأوى . كما راى المسؤول الصحي في الغرفة ان الصاق صورة بريجيت يحجب اشعة الشمس عن الغرفة وايده بذلك المسؤول عن الحشرات فقال ان اشعة الشمس تساعد في قتل الميكروبات والجراثيم . بعد استماعه بشكل متقطع للمناقشات نهض شعنون ـ التزاما بالديمقراطية المركزية ـ وخلع صورة بريجيت فانتهت بخلعها كل فتوحاته .

تيسير نظمي

صدر حديثا :

زوربا

الرواية الشهيرة لـ :

نيكوس كازانتزاكي

بعد غيابها طويلا عن السوق

ترجمة جورج طرابيشي

•

الشك

الرواية الشهيرة لـ :

كولن ولسن

التي كانت تنقص مجموعته الروائية الكاملة

صدرتا حديثا
في طبعة جديدة
عن دار الآداب